Dirasat: Human and Social Sciences, Volume 51, No. 1, 2024

Deanship of Scientific Research

Nostalgia and Homesickness in Abu Al-Fath Al-Tunisi's "Nooniyah:" A Semantic Content Analysis

Hanan Ibrahim Al-Amyrah*

Department of Arabic Language and Literature, Salt College of Human Sciences, Al-Balqa Applied University, Al-Salt, Jordan.

Received: 16/4/2022
Revised: 30/11/2022
Accepted: 28/02/2023
Published: 30/1/2024

* *Corresponding author:*
amayrahh@yahoo.com

Citation: Al-Amyrah, H. I. (2024). Nostalgia and Homesickness in Abu Al-Fath Al-Tunisi's "Nooniyah:" A Semantic Content Analysis. *Dirasat: Human and Social Sciences*, *51*(1), 503–514.
https://doi.org/10.35516/hum.v51i1.251

Abstract

Objectives: This study seeks to analyze "Nooniyah," a poem by Abu Al-Fath Al-Tunisi, to pinpoint images of nostalgia and homesickness in the poetry of Moroccan nomads. It also highlights how nostalgia manifests itself in poetic images and semantic features.

Methods: The study uses a descriptive, analytical approach. It explains the poet's inspiration for writing the poem and reveals the circumstances and factors that influenced the composition of Al-Tunisi's poem. Moreover, the study examines the poem's most prominent stylistic features.

Results: The study shows that the poem depicts the expatriate poet's feelings of nostalgia and homesickness, which are reflected in the poem's word choice. In addition, it highlights the impact of nature on his suffering and sad feelings upon his expatriation. It also points out the significance of the semantic structure in expressing a state of longing and belonging.

Conclusions Nostalgia and homesickness prevail in the poetry of Abu Al-Fath Al-Tunisia due to his expatriation. This experience necessitated certain semantic features and poetic images that are associated with the poet's emotions and homeland.

Keywords: Abu Al-Fath Al-Tunisi, antonyms, homesickness, Nooniyah, nostalgia, semantic features.

الشّوق والحنين للوطن في نونيّة أبي الفتح التونسي: دراسة مضمونية دلالية

حنان إبراهيم العمايرة*

قسم اللغة العربية، كلية السلط للعلوم الإنسانية، جامعة البلقاء التطبيقية، الأردن.

ملخّص

الأهداف: تسعى هذه الدّراسة إلى استقراء قصيدة نونية أبي الفتح التونسيّ والوقوف على صور الشوق والحنين في شعر المرتحلين المغاربة عن ديارهم. وبيان أثر الحنين على الصورة الشعرية والحقول الدلاليّة.

المنهجية: استخدمت الدراسة المنهج التحليلي الوصفي. وصفت مناسبة قصيدة أبي الفتح التونسيّ وكشفت عن المواقف والعوامل المؤثرة في نظم هذه القصيدة. وحلّلت الدراسة كذلك أبرز الملامح الأسلوبية.

النتائج: أظهرت نتائج الدراسة أن التونسيّ صوّر معاني الشوق والحنين لوطنه تونس بعد اغترابه عنها، وكشفت عن مشاعر الحزن التي سيطرت على مفردات القصيدة. وبيّنت الدراسة أثر الطبيعة في معاناته وأحاسيسه في غربته عن وطنه، وأثر البنية الدلالية في التعبير عن حالة الحنين للوطن والانتماء إليه.

الخلاصة: الشوق والحنين كثر في شعر أبي الفتح التونسيّ لأنه عايش تجربة الاغتراب، ممّا استدعى حقولًا دلالية وصورًا شعرية ترتبط بالعاطفة والوطن.

الكلمات الدالة: الشوق والحنين، نونيّة أبي الفتح التونسي، الحقول الدلالية، الطباق.

© 2024 DSR Publishers/ The University of Jordan.

This article is an open access article distributed under the terms and conditions of the Creative Commons Attribution (CC BY-NC) license https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

المقدمة

نظم هذه القصيدة "أبو الفتح محمّد بن عبد السّلام التّونسيّ نزيل دمشق،، وبها نشأ، وطلب العلوم وبرع فيها، واشتهر فضلا، رحل إلى المشرق فحج، ثمّ دخل الشّام فاستقرّ بدمشق الشّام، أخذ عنه علماء المشرق وتخرّج به كثير من فضلائهم، وله شهرة ذائعة في شيوخ علماء المائة العاشرة لأخذهم عنه العلوم وانتفاعهم به هم وشيوخهم، كان شاعرا مفلّقا، "و كانت ولادته سنة إحدى وتسع مئة وأمّا وفاته فكانت أواخر المائة العاشرة". (النّيفر، 1996م).

وذكره صاحب سلافة العصر وعنه قال:"أحد الفضلاء الأعيان، وواحد أئمة البيان، له في الأدب قدح يجول، وصوانع غرور وحجول، سدّد صعاد قرايحه وأشرع، وكرع من الفضل في أغرز مشرع، وقفت له على بيتين يهمي منهما صوب البلاغة ويجود، لولا يفهم منهما من القول بوحدة الوجود، والله عليم بحقيقة اعتقاده، وهو المطلع على خفايا صدور عباده، والبيتان هما:

يا انعكاس الشّعاع في المرآة وانعطاف الصّدى على الأصوات

أيقن النّاس أن ليس في الكون سـوى مقتضي شؤون الذّات" (ابن معصوم، د.ت)

وكان" له النّظم الذي يفوح نشره،ويلوح بشره، لأنّه كما قيل شرب من ماء الغوطتين، وهبّ عليه نسيم الواديين.. وكان كثير الهجاء واستمرّ بدمشق متوليا منصب القضاء ومفتيا على مذهب مالك إلى أن توفاه الله في سنة خمس وسبعين وتسع مئة والجملة كان رحمه تعالى من محاسن الدّنيا ومات ولم يعقب بذكر" (البوريني، 1959 م)وأمّا فيما يتّصل بتفاصيل حياته فلم نجد في المصادر التي اطّلعتُ عليها معلومات حول تفاصيل حياته في تونس وأسباب انتقاله منها إلى المشرق، وثمّة اختلاف في المصادر حول المرحلة العمرية التي غادر فيها تونس،فأغلبها تشير إلى أنه انتقل منها في شبابه (الخفاجي، 1967م) وهناك إشارة في خريدة العصر إلى أنّه فارق تونس عند حلول الكارثة (الأصبهاني، د.ت).

وأمّا مناسبة هذه القصيدة فقالها" يرثي تونس وأهلها بعد واقعة الحسن الحفصي(*[1]) (:" مقديش محمود، 1988م) وجوان بن جاكمو قائد الجيش الإسبنيولي، ويذكر عيث الأعداء الإسبنيول فيها بالقتل والسّبي وما صارت إليه بعدما كانت عليه من العمران والعلم والفخامة(**[2]) (المؤنس، 1986م" (النيفر، 1996م).

وقد قمت باختيار هذه القصيدة والوقوف عليها لتصويرها ما يعانيه المغترب عن بلاده من شوق وحنين وانتماء إليه، فقد أوردها صاحب نفح الطّيب تأكيدا لهذا المعنى، وذلك بعد أن ذكر قصيدة لعبد العزيز القشتالي وصفها بالفريدة وذكر سبب وقوفه عليها فقال:" ولأنّ شجون الحديث الذي جرّ إليها، شوّقني إلى معاهدي المغربيّة التي أكثرُ البكاء عليها" (المقري، 1997م)، وقال المقّري بعد الانتهاء من ذكر هذه القصيدة مقدّما لإيراد قصيدة التّونسيّ(موضوع دراستي هذه): "انتهت القصيدة التي في تغزّلها شرحُ الحال، وإعراب عمّا في ضمير الغربة والارتحال، ولنعززها بأختها في البحر والرّوي، قصيدة القاضي الشّهير الذّكر، الأديب الذي سلبت النُّهى كواعبُ شعره إذ أبرزها من خدور الفكر.. <u>فإنّها نفثة مصدور غريب</u>، وبثّ معذور أريب، فارق مثلي أوطانه وما سلاها، وقرأ آيات الشّجو وما تلاها، وتمنّى أن يجود له الدّهر برؤية مجتلاها" (المقري،1997م)، إنّ المقّري باختياره لهاتين القصيدتين ومعهما نونية ثالثة للسان الدّين بن الخطيب في الغرض نفسه، يؤكّد لنا أثر الغربة وما يتخللها من الشّعور بالشّوق والحنين إلى الوطن في نفس من يكابدها، وليس أدلّ على هذا من وصفها بنفثة مصدور غريب، ففي هذه العبارة تحديد واضح للمشاعر التي عبّرت عنها القصيدة، فالمصدور الذي يشكتي صدره، (الرازي، 2008م)،ونفثة صدره دليل واضح على حجم الضّغط النّفسي الذي يجده الغريب، ومن هنا فإنّ التقاء النّاس في هذا الجانب الشّعوري أمر واضح لا خلاف عليه، يُجلّيه الشّعراء في نتاجهم الأدبيّ، وفي قراءتنا لهذه القصيدة وتمثّلنا لمعاني الشّوق والحنين للوطن والانتماء إليه نجد تمثّلا للنّفس الإنسانية وقراءة لها عموما، وقد جعل حازم القرطاجني هذا الموضوع من أهم بواعث الشّعر فقال: "ولما كان أحق البواعث بأن يكون هو السّبب الأوّل الدّاعي إلى قول الشّعر هو الوجد والاشتياق والحنين إلى المنازل المألوفة وألافها عند فراقها، وتذكّر عهودها وعهودهم الحميدة فيها، وكأن الشّاعر يريد أن يبقى ذاكرا أو يصوغ مقالا يخيل فيه حال أحبابه ويقيم المعاني المحاكية لهم في الأذهان مقام صورهم وهيآتهم ويحاكي فيه جميع أمورهم حتّى يجعل المعاني أمثلة لهم ولأحوالهم" (القرطاجني، 2006م)، إذًا فالشّعراء يتقاربون في أسلوب تعبيرهم عن المشاعر الإنسانية التي يعيشونها لا سيما ما تّفقوا فيها من جوانب الألم والمعاناة؛ ولأنّ في هذه القصيدة تصويرًا واضحًا لهذا الجانب الشّعوري فقد ركّزت هذه الدراسة على فكرة الحنين للوطن والانتماء إليه في شعر المغتربين عن ديارهم دراسة مضمونية دلالية، مبتدئين بالوقوف عند جانب الحنين والشّوق كما عبّرت عنه القصيدة، ثم عرضنا لأبرز الجوانب الدّلالية التي وظفها الشّاعر في تعبيره عن الحنين والشّوق.

---

[1]. هو ابن المولى ابن محمّد بن الحسن ابنا المسعود بن المولى أبي عمرو عثمان بويع يوم وفاة والده يوم الخميس الخامس والعشرين من ربيع الثاني سنة 932هـ، ولما تولى رفع المكوسات كلها وأجرى على الناس العادة العثمانية وسار سيرة حسنة أول أمره.. سمعت من يذكر من أهل تونس أن السّلطان الحسن ساءت سيرته في النّاس واضربت عليه البلاد وخرجت عن طاعته، ثم انقلبت أحواله فاضطربت عليه البلاد وخرجت عليه الحامّة وخرجت عليه صفافس.. وخرجت عليه سوسة" يُنظر في: كتاب المؤنس في أخبار افريقية وتونس، ابن أبي دينار، محمد بن أبي القاسم الرّعيني القيرواني، ط1، مطبعة الدّولة التّونسيّة،:ص151/152..وفي كتاب كتاب نزهة الأنظار في عجائب التّواريخ والأخبار:": مقديش محمود، تحقيق علي الزواري، محمّد محفوظ، ج1، دار الغرب الإسلامي، ط1، 1988م، ص606.

[2]. " وهذه الواقعة المعبّر عنها بخطرة الأربعاء وكان السّلطان الحسن أباح البلد للنّصارى ثلاثة أيّام... وكانت هذه <u>الواقعة سنة إحدى وأربعين وتسعمائة</u>" ينظرتفصيل الحدث في كتاب المؤنس في أخبار افريقية وتونس، ابن أبي دينار، محمد بن أبي القاسم الرّعيني القيرواني، ط1، مطبعة الدّولة التّونسيّة،:ص151-155.

ومن الجدير بالذّكر أنّ هذه القصيدة لم تتم دراستها والوقوف عليها بصورة خاصّة، وإنما تمّت الإشارة إليها في سياق دراسة جامعية حول الشّعر في عصر الدّولة الحفصية، وقد جاء الحديث عنها عاما في سياق موضوعات الشعر في هذا العصر؛ لذا اتجهت هذه الدّراسة للوقوف على نونية أبي الفتح التّونسيّ وتحليلها وفق المنهج الوصفي، مستعينة أيضا بأدوات المنهج الأسلوبي لا سيّما في ما يتعلّق بالدّلالة.

أوّلا: الشّوق والحنين والانتماء للوطن

الحنين لغة يحمل معنى الشّوق وتوقان النّفس، والمعنيان متقاربان..ويقال حنّت الإبل: نزعت إلى أوطانها وأولادها (ابن منظور، 1994)، وقال الجوهري"المستحنّ الذي استحنّه الشّوق إلى وطنه".(الصحاح، 2008) وللحنين معان أخرى لبعضها علاقة بشدّة الشّوق والحزن والهيبة والوقار (دقالي،2008)، والحنين في الاصطلاح:"حزن وذبول يغشيان عددا من النّاس في حالة ابتعادهم عن الوطن" (عبدالنور، 1984).

وحنين الإنسان للوطن أمر فطري جُبلت عليه النّفوس؛ ذلك لأنّ من:" علامة الرّشد أن تكون النّفس إلى مولدها مشتاقة، وإلى مسقط رأسها توّاقة" (الجاحظ، 1964) وقيل إنّ:"من أمارات العاقل برُّه بأخوانه، وحنينه لأوطانه". ونظرا إلى الدّور الكبير الذي يؤديه الشّعر في تصوير نفسيّة صاحبه وما يكتنفها من مشاعر متنوّعة تعكس خبراته وانفعالاته، سواء في حلّه أو ترحاله، فإنّنا نجد في الأشعار التي نُظِمت في البعد عن الأوطان، وعبّرت عن الحنين والشّوق أهميّة كبيرة؛ فهي:" من الموضوعات التي طرقها الشّعراء قديما وحديثا، وتمتاز بالعاطفة الصّادقة والأحاسيس الحزينة المتأججة" (الخليلي، 2007) كما أنّها تكشف " عن مدى معاناة الإنسان في ديار الغربة بعيدا عن وطنه، فالحنين يرضي شغاف النّفس، ويشبع حب النّاس للأوطان" (الخليلي، 2007).

إنّ في بوح الشّاعر المغترب عن وطنه وتصويره لمشاعر الحنين والشّوق، والتّعبير عمّا يكابده من مرارة في ديار الغربة، تأكيدا كبيرا لمكانة الوطن في النّفوس، وتخفيفا لوطأة تلك المشاعر عن نفسه، وما هذا اللون من الشّعر إلا كما وصفه المقّري في تقديمه لهذه القصيدة:"فإنّها نفث مصدور غريب، وبث معذور أريب، فارق مثلي أوطانه وما سلاها، وقرأ آيات الشّجو وتلاها، وتمنّى أن يجود له الدّهر برؤية مجتلاها" (المقري، 1997)، ومن هنا فلا غرو بأن يكون موضوع الحنين والشّوق للوطن من أبرز المضامين التي يعبّر عنها المرتحلون عن بلادهم؛"فقد أصبحت الغربة هاجسا يسكنهم، يرددون ألفاظها ومعانيها المختلفة في معظم ما يكتبون، مكثرين فيه من الحنين الدّائم" (البدوي، 2009)، ولقد " بكى الشّعراء المهاجرون تلك المدن والمعاهد التي خلفوها وراءهم، وحنّوا إلى معاهد الطّفولة والذّكريات، واستحضروا سعادة الأيّام الذّاهبة في تلك الأماكن المجللة بجمال الطّبيعة.. فكان الحنين إلى معاهد الطّفولة ومسقط الرّأس يشكّل أهم معلم في هذا الشّعر" (طحطح، 1993)

ولأنّ أبا الفتح التّونسيّ من الشّعراء الذين اغتربوا عن ديارهم إلى المشرق ونزل دمشق وعاش فيها بعيدا عن موطنه، فإنّه من الطّبيعي أن يظهر الشّوق والحنين لوطنه وتأكيد الانتماء إليه واضح في شعره، وهذا ما بدا واضحًا في هذه القصيدة، إذ شكّل هذا الموضوع مرتكزًا نصّيا دارت حوله نونية أبي الفتح التّونسيّ منذ بداياتها وحتى خاتمتها؛ فقد افتتحها بتوصيف آثار ما خلّفته الغربة فيه من الشّوق والحنين لوطنه والصّبابة إليه، ممّا أجرى دموعه، وأضرم النّيران في لواعجه، حتّى صار ما حوله شاهدا على حاله وناطقا بها، فيقول مخبرا عن حاله وما ألمّ به من شوق وحنين خلفتها الغربة عن الوطن: (المقري، 1997)

سلوا البارق النّجديَّ عن سُحبِ أجفاني وعَمّا بقلبي من لَواعجِ نيراني

ولا تسألوا غيرَ الصَّبا عن صبابتي وشدّة أشواقي إليكمْ وأشجاني

ولقد كانت الطّبيعة بعناصرها المختلفة مشاركا وجدانيا للشاعر في تعبيره عن شوقه وحنينه لدياره التي غادرها وظلت ساكنة به، فهي الشّاهد على هذه المشاعر، وهي التي خفّفت عنه وطأتها، وليس هذا الأمر بغريب على الشّعراء الذين عاشوا بعيدين عن ديارهم وذاقوا مرارة الغربة عن الأوطان؛ إذ كان المزج بين الحنين والطّبيعة في صورهم الشّعريّة من المعاني البارزة التي عبّرت عنها قصائدهم التي نظموها في سياق تعبيرهم عن الشّوق والحنين لأهلهم وأوطانهم" (عتيق، 1976)، فها هو ذا التّونسيّ يصوّر هذا بقوله: (المقري، 1997)

فما لي سِواها من رسولٍ إليكمُ سريعِ السُّرى في سيرهِ ليس بالواني

فيا طالَ بالأسحارِ ما قدْ تكلّفتْ بإنعاشِ محزونٍ وإيقاظ وسْنانِ

وتنفيسِ كربٍ عن كئيبٍ متيَّمٍ يحنُّ إلى أهلٍ ويصبو لأوطانِ

فللهِ ما أذكى شَذا نَسْمةِ الصَّبا صباحا إذا مرّتْ على الرَّندِ والبانِ

وسارتْ مسير الشّمسِ وهْنًا فأصبحتْ من الشّرقِ نحوَ الغربِ تجري بحسبانِ

وقد كانت الطّبيعة بنسماتها رسوله الذي حمّله التّحايا والأشواق ليرسلها لأهله ولبلده، وهي التي لطالما كانت لسان أشواقه وحنينه إليهم: (المقري، 1997)

فكمْ نَحْوكمْ حمَّلتُها مِنْ رسالةٍ مُدَوْنةٍ في شرحِ حالي ووجداني

وناشدْتها باللهِ إلا تَفَضّلتْ بتبليغِ أحبابي السّلامَ وجيراني

تحيّةَ مشتاق إلى ذلك الحِمى وسكّانِه والنّازحينَ بأظعانِ

وشغل الحنين لوطنه وأهله حيزًا واضحًا من مساحة تعبير الشّاعر وعواطفه الجيّاشة في هذه القصيدة، فعبّر عن شوقه الكبير لبلده تونس وكلّ ما فيها، ولا غرو في هذا؛ " فالمدينة أو القرية تمثّل جزءا مهما من ذكريات الشّاعر، فإما أن تكون مسقط رأسه، أو مكان نشأته وتعليمه، وربّما انتقل إليها لأي ظرف من الظّروف التي أجبرته على مغادرتها" (الدقالي، 2008) وقد صدّر الشّاعر حديثه عن بلده تونس وشوقه إليها بالدّعاء لها ولأهلها بالسّقيا بعد أن أزجى لهم أطيب التّحايا (المقري، 1997)

سَقَى الله هاتيكَ الدّيارَ وأهلَها سحائبَ تحكي صَوبَ مدمعيَ القاني
وحيّا ربوعَ الحيّ من خيرِ بلدةٍ تخيرها قِدماً أفاضلُ يونانِ
هي الحضرةُ العُليا مدينةُ تونسٍ أنيسَة إنسانٍ رآها بإنسانِ

وتُظْهِر لنا أبيات هذه القصيدة التي خُصّت بها مدينة تونس إحساس الشّاعر الجليّ بالغربة المكانيّة، وافتقاد الوطن بكل تفاصيله الماثلة في ذاكرته فنجده يصوّر لنا ما تولّد عنها "من حنين وشوق للوطن الأم بكل مكوناته من أهل ومجتمع وحضارة، فضلا عن حالة الغربة الذّاتيّة أو الرّوحيّة التي تتمخّض عن الغربة المكانيّة فتجعل الإنسان المغترب عن وطنه يلجأ إلى استدعاء صور من الماضي، كصور الطّفولة ومراتع الصّبا وبعض مكوّنات البيئة المحليّة من طبيعة وعادات وتقاليد، ليجسّد من خلال ذلك حبّه وارتباطه بالوطن الأم الذي ولد وترعرع فيه، وإليه ينتمي تاريخيّا وثقافيا وحضاريّا (درابسة، 1992)، وقد ظهرت هذه المعاني واضحة عند استذكاره لتونس وتعداد مفاخرها مبتدئا بحكّامها إذ يقول: (المقري، 1997)

لها الفَخْرُ والفضْلُ المبينُ بما حَوتْ من الإنسِ والحُسْنِ المنوطِ بإحسانِ
لقد حلَّ منها آلُ حفصٍ ملوكُها مراتبَ تَسْمو فوقَ هامةِ كيوانِ
وسادوا بها كلَّ الملوكِ وشيَّدوا بها من مباني العِزِّ أفْخَر بُنيانِ
وكان لهم فيها بَهاءٌ وبَهْجةٌ وحسْنُ نظامٍ لا يُعابُ بنقصانِ
وكانَ لهم فيها عساكرُ جمّةٌ تَصولُ بأسيافٍ وتسطو بمُرّانِ

ويذكر أهلها وما كان لهم من مفاخر وفضائل ميّزتهم عمّن سواهم، ويصف جمالها وحسنها الذي فاقت به غيرها من المدن قائلا: (المقري، 1997)

وكانَ لأهلها المفاخرُ والعُلا وكان بها حصنا أمانٍ وإيمانِ
وكان على الدّنيا جمالٌ بحسْنها وحسْنِ بنيها من ملوكٍ وأعيانِ

ويستحضر مكانتها العلميّة ودورها في تقدير العلم والعلماء، مشيرا إلى تميّزها في هذا الجانب عن غيرها من المدن: (المقري،1997)

وكانتْ لطلّابِ المعارفِ قِبْلةً لما في حِماها من أئمةِ عِرْفانِ
وكانَ لأهلِ العِلْمِ فيها وجاهةٌ وجاهٌ وعزٌّ مجْدُهُ ليس بالفاني
وكانَ بواديها المقدَّسِ فِتيَةٌ تُقدّسُ باريها بذكرٍ وقرآنِ
ومن أدباء النّظْمِ والنّثرِ معشرٌ تفوقُ بناديها بلاغَةَ سَحْبانِ

ويسجّل لها التّميّز والتّفرّد في الأبواب كلّها، حتّى جعلها جامعة للحسن ولأهل الحذق والإتقان في كلّ نوع، وفي هذا يقول: (المقري، 1997)

وكانت على العداء في حَومةِ الوغى تطولُ بأبطالٍ وتسطو بشجعانِ
وما بَرِحَتْ فيها محاسنُ جَمّةٌ وفي كلِّ نوعٍ أهْلُ حذقٍ وإتقانِ

لقد صوّر لنا الشّاعر فيما يقارب ثلاثين بيتا من هذه القصيدة شوقه وحنينه لبلده تونس مستحضرا ما كانت تتميّز به قبل الحادثة التي دمّرتها، ولعله وقف بنا على صورتها إبّان عيشه فيها قبل مغادرتها إلى دمشق، وقد تبيّنا مقدار حبّه لبلده وانتمائه إليه مقدّما إيّاه على كلّ المدن الأخرى، ولا غرابة في هذا؛ ذلك لأنّ" الحنين رحلة في الزّمان، وعودة إلى الوراء لمعايشة الماضي شعرا واسترجاعه، واستحضاره على مستوى الأهل والوقائع" (طحطح،1993)، وهذا ما تجّلى واضحا في وقوف الشّاعر عند وطنه أيّام عزّه وتميّزه، وحتّى بعد تغيّر حاله وتعرّضه للدّمار، إذ كان الوطن ماثلا أمام الشّاعر في غربته؛ فنجده يعبّر عن حضور الوطن لديه وتعلّقه به بعد الحادثة التي دمّرت تونس وخرّبتها، ممّا جعل شوق الشّاعر إلى وطنه وحنينه إليه يتضاعف، وقلبه يتصدّع ألمًا على ما ألمّ بها، فنجده يصوّر هذا الحزن قائلا: (المقري، 1997)

فما لبثت تلكَ المحاسنُ أن عَفَت وأقفرَ رَبْعُ الأنسِ من بعدِ سكّانِ
وشُتّتَ ذاك الشّملُ من بعد جَمْعِهِ كما انتثرتْ يوما قلائدُ عقيانِ
فأعظِمْ برُزْءٍ خصَّ خيرَ مدينةٍ وخيرَ أناسٍ بينَ عُجْمٍ وعربانِ

إنّ إحساس المغترب بالتّحسّرعلى وطنه يتضاعف في وقت الأزمات والحروب؛ فهو يفتقد وطنه في البعد عنه ويحنّ إليه وهو بخير وأمن وطمأنينة، فكيف ستكون الحسرة والمرارة إذا ما أصابه الدّمار والهدم وهو مغترب عنه؟! لقد صوّر لنا التّونسيّ في هذه القصيدة مشاركته الوجدانيّة لوطنه وأهله على ما أصابه من غمّ وحزن أضرم النّار في قلبه، فقال: (المقري، 1997)

لعمري لقدْ كادَتْ عليها قلُوبُنا تَضَرَّمُ من خطبٍ عَراها بنيرانِ
وقدْ عَمّنا غَمٌّ بعظمِ مصابها وإنْ خَصّني منه المضرُّ بجثماني
وما بَقِيَتْ فيما عَلـمناهُ بلدةٌ من الشّرقِ إلا أُلْبِسَتْ ثوْبَ أحزانِ

ويؤكّد الشّاعر لأهله وأحبابه في وطنه وداده وعمق ارتباطه بهم، مشيرا إلى أنّ البعد عنهم لم يؤثّر في تعلّقه بهم فيخاطبهم قائلا: (المقري، 1997)

أأحبابَنا إنْ فرّق الـدّهرُ بيْنَنا وطَالَ مغيبي عـنكمُ منذُ أزمانِ
فإنّي على حِفْظِ الوداد وَحقِّكمْ مقيمٌ، وما هَجْرُ الأحبّةِ من شاني
ووالله والله العـظيمِ أليّـةٌ على صدقها قامتْ شـواهدُ برهاني

كما أكّد تزايد شوقه وحنينه لهم حدّا جعله مضنى من طول البعاد عنهم،فقال: (المقري، 1997)

لقد زادَ وَجْدي واشتياقِ إليكُمُ وبرّحَ بي طولُ البعادِ وأضناني

ويظهر ارتباط الشّاعر الكبير بأهله ووطنه، وشدّة تعلّقه بهم من خلال محاولته بيان حضورهم الدّائم في نفسه، وتصوير شوقه وحنينه إليهم، وعدم قدرته على سلوانهم، أو أن يستبدل بهم غيرهم، فيقول: (المقري، 1997)

فلا تَحْسَبوا أنّي تسـلّيتُ بعْـدَكمْ بشيءٍ من الدُّنيا وَزُخرفها الفاني
ولا أنّني يومـاً تناسيْتُ عهدكمْ بحـالٍ ولا أنَّ التّكاثرَ ألهـاني
ولا راقني روضٌ ولا هشّ مسْمَعي لنغمـةِ أَطْيـارٍ ورنّـةِ عيدانِ
ولا حلَّ في فكري سـواكمْ بِخَلْوةٍ ولا جَلْوةٍ مـا بين حورٍ وولدانِ
ولا اخْتَلَجتْ يوما ضمائرُ مُهجتي لغيركمُ في سرّ سـرّي وإعلاني

إنّ هذه الأبيات تشي بحالة الحزن التي يعيشها المغترب في بعده عن أهله، فهو لا يستلذّ بشيء من المتع، وهو دائم الافتقاد لأحبّته، ولعلّ مردّ هذه المشاعر الإحساس الكبير بالغربة؛ فهي" عاطفة تستولي على المرء، فيعيش في قلق وكآبة لشعوره بالبعد عمّا يهوى، أو يرغب فيه، وتبرز هذه العاطفة في شكلين:أوّلهما في حالة الابتعاد عن ملاعب الفتوّة، وديار الأحبّة" (فهمي، 1981)، وفي هذه الأبيات يتجلّى لنا أيضا انتماء الشّاعر الكبير لأهله ووطنه، وليس أدل على هذا من عدم قدرته على نسيانه من جهة، وعدم تقبّله السّرور والتّمتع بمباهج الحياة في البعد عنه، وحنينه الدّائم إليه؛ فالحنين" فضلا عن كونه عاطفة جيّاشة يعدّ انتماء" (دوابشة، 2009)، وهو أيضا" انتماء وولاء وحب وحنين" (الجبوري، 2007).

وممّا يعزز انتماء الشّاعر الكبير لوطنه وحنينه الدّائم إليه، تأميله النّفس بالرّجوع إليه، وعدم اليأس من ذلك، فهو على أمل اللقاء وبه يحيا ما عاش، وهذا ما صوّره الشّاعر في قوله مختتما به هذه القصيدة: (المقري، 1997)

ولو لم أسلِّ النّفسَ بالقربِ واللقا لأدْرج جِسْمي في مقاطعِ أكفاني
فما أنا في عَوْدي إليكمْ بآيسٍ فما اليأسُ إلا من علامةِ كفرانِ
عليْكمْ سلامُ الله في كلّ سـاعةٍ تحيّة صبٍّ لا يـدينُ بِسُـلوانِ
مدى الدّهر ما ناحتْ مطوّقةٌ وما تعاقب بين الخـافقينِ الجديدانِ

ثانيًا: البنية الدّلالية في القصيدة

تؤدّي البنية الدّلاليّة أهميّة كبيرة في تأكيد المعاني، فهي التي تبيّنها وتظهرها بصورة واضحة للمتلقّي، ولقد بنى التّونسيّ قصيدته من ألفاظ وكلمات نظمها وفْق ما يرتأيه من نسق شعري منظوم في اختيارات تتوافق مع بيئته الثّقافيّة والاجتماعيّة والنّفسيّة، لا سيّما حالته الشّعورية التي سيطرت عليه، وهنا تأتي نظرية الحقول الدّلالية فهي:" مجموعة من الكلمات ترتبط دلالتها، وتوضع تحت لفظ عام يجمعها " (عمر، 1993م) فتشكّل هذه الألفاظ مفتاحًا لقراءة دلالات الشّاعر في نصّه، فالحقول الدّلالية تُعنى بدراسة الكلمات من خلال تجميعها ولكي تفهم معنى كلمة يجب أن تفهم كذلك جميع الكلمات المتصلة بها، والسّياق الذي وردت يكشف إيحاءات وخبايا اللغة.

وفي نونية التّونسيّ نجد الحقول المعجمية تؤكّد دلالات الشّوق والحنين للأوطان، وهي –كما تبيّنا-الحالة الشّعورية الواضحة التي صوّرتها هذه القصيدة، وشكّلت مرتكزها النّصيّ، ويمكننا الوقوف عند أبرز العلاقات الدّلاليّة الموجودة بين كلمات الحقل الواحد، الذي يكشف عن وعي دلاليّ متقدّم يبرز لنا احتواء المدونة على عدد معتبر من العلاقات بين المفردات، لتشكّل القصيدة نسيجًا من الحقول الدّلالية المتناغمة لتحقق دلالة الشّوق والحنين لأرض تونس.

ويعرّف الحقل المعجمي بأنه:" مجموعة من الكلمات التي ترتبط دلالتها وتوضع عادة تحت لفظ عام يجمعها" (عمر 1993)، ولا شك في أن الحقل الدّلالي يساعد الشّاعر في نسج أبعاد الدّلالات المحورية للنّص وإيصالها للمتلقي، فالألفاظ التي تشكّل الحقول الدّلالية داخل النّص تسهم في التّعبير عن المعنى، وتوجّه المتلقي نحو رؤية تأويليّة تنسجم مع بنية النّص، فالدّراسة المعجمية تنصبّ أساسًا على دراسة الكلمة، والكلمة هي الواجهة الأولى التي

يحتكّ بها القارئ مع النّص قبل الولوج إلى أغوار النّص لاكتشاف الدّلالة المحوريّة العميقة للنّص، وهنا ننظر إلى منظومة الكلمات المتجاورة، وعلاقة كل كلمة بما قبلها وما بعدها، وكيف يتشكّل معنى هذه الكلمة داخل السّياق النّصيّ، وهذا ما أشار إليه مختار عمر بحديثه عن السّياق، ولكي تفهم معنى كلمة يجب أن تفهم كذلك مجموعة من الكلمات المتّصلة بها دلاليا (عمر، 1993) " ولأنّ الحقل المعجمي يقوم على نظام ربط الدّلالات المتشابهة تحت معنى عام فإنّنا نجد في قصيدة التّونسيّ أن حقل العاطفة هو الحقل الأبرز في دلالات هذه القصيدة، ثمّ تتولد الدّلالات الأخرى التي تصبّ في حقل شوق الشّاعر وحنينه لأرضه وديارِه، ولعل اختيار مفردات هذه القصيدة يثبت أن الشّعر ما هو إلا شعور صادق ينبئ عن مكنون قلبه وأحاسيسه.

ويمكننا أن نقف عند الحقول الأبرز في هذه القصيدة وقد جاءت كما يأتي:

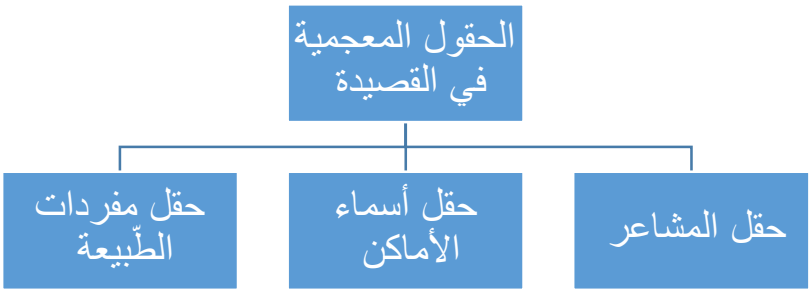

حقل المشاعر القلبيّة		حقل الطّبيعة والورود والرّياض	حقل المكان / حقل اسم القوم
الشّوق	**الحزن**	الرّياض/ صيغة الجمع	آل ساسان
أشواق	أشجان	الرّند	خراسان
اشتياق	لواعج	البان	الشام
مشتاق	محزون	الرياض/ صيغة الجمع	كيوان
صبّ	كئيب	أزهارها / صيغة الجمع	يونان
وجداني	مدمعي	ريحان	تونس
يصبو	جثماني	سحائب/ صيغة الجمع	آل حفص
يحنّ	أحزان	ربوع الحي / صيغة الجمع	سحبان
أنيسة	غمّ	روض	عجم
صبابتي	مصابها	نغمة أطيار	عربان
وجدي	وهنًا	رنّة عيدان	
	أضناني	البارق	
	آيس		
	ناحت		
	أكفان		
	المحنة		

يكشف الجدول السّابق عن الحقول المعجمية الظّاهرة في قصيدة التّونسيّ، ولا شك في أنّ حقل المشاعر القلبية هي الأكثر حضورا، فالمغترب تتناوبه الأحاسيس، لذا فإننا نجد كلمة القلب استُخْدِمت في صيغة المفرد والجمع " قلوبنا"؛ ليعبّر عن حال كل مغترب عن دياره، فالقصيدة تنطلق من التّعبير عن الإحساس الذاتيّ ليصبح تصويرًا لحال كل من هو بعيدُ عن وطنه.

ولأنّ الشّاعر في حالة حزن ووجد من غربته نجد أن حقل المشاعر الحزينة هو الحقل الأكثر تمثّلًا في هذه القصيدة، فلواعج النّفس الحزينة بعثت الكآبة والوهن في نفس كل مغترب يتذكّر ما حلّ بوطنه من المآسي، وأي حزن ذلك الذي يأتي من صور الجثمان والأكفان هذا المشهد الذي عرضه الشّاعر حين سقطت أرضه في يد الأعداء؛ يقول:

لعمري لقدْ كادَتْ عليها قلُوبُنا		تَضَرَّمُ من خطبٍ عَراها بنيرانِ
وقدْ عَمّنا غَمٌّ بعظمِ مصابها		وإنْ خَصّني منه المضرُّ بجثماني
وما بَقِيَتْ فيما عَلـمناهُ بلدةٌ		من الشّرقِ إلا أُلْبِسَتْ ثوْبَ أحزانِ

فثوب الحزن الذي لبسه الشّاعر سببه الغربة والبعد عن الوطن، إضافة إلى الحال التي آلت إليها أرضه بعد ابتعاده عنها، وبين ما كان عليه وطنه وما آل إليه تحرّكت مشاعر الشّوق والحنين، ومن هنا فإنّنا نجد مفردات الشّوق والحنين والوجد والصّبابة جاءت لتؤكّد عمق أشواقه لأهله وأرضه.

ومن حقل المشاعر إلى حقل الطّبيعة التي تتسع لتشمل موجودات الطّبيعة من رياضٍ ونباتات وزهور، فنجد الرّيحان والرّند والبان زهورًا تذكّره بمناظر الجمال في وطنه فيزداد فخرا بوطنه وحنينًا إليه، وكأن عناصر الطّبيعة جاءت لتجسّد مشاعر الشّوق للوطن، ولتزداد صورة الطّبيعة جمالًا نجده ينتقي مفردات معجم الوقت ليرسم المشهد بألوانه وحركته فتصبح الصّورة نابضة بالحياة فيزداد الشّوق، كما في قول الشّاعر:

فللهِ ما أذكى شَـذا نَسْمـةِ الصّبا صباحا إذا مرّت على الرّندِ والبانِ

وسارتْ مسير الشّمسِ وهْنًا فأصبحتْ من الشّرقِ نحوَ الغربِ تجري بحسبانِ

فما بين حركة نسيم الصّبا صباحا، وبطء مسير الشمس، نجد مشاعر الوهن والحزن تثور لتعمّق الدّلالة المحورية للنّص، ومن معجم مفردات الوقت في هذه القصيدة نجد أيضًا:" السّرى/ الأسحار/ مسير الشّمس/ صباحا".

ولا شكّ في أن الحقل المعجمي لمفردات الوقت ينسجم في سياقه الذي ينتظم به ليتناغم مع مفردات (حقل الطّبيعة) بما تحتويه من رياض وزهور بأنواعها وسحائب لتشكّل صورة حيّة نابضة بالحنين للدّيار وموحية بمدى الحزن في ثنايا الغربة، ولعلّ هذا دأب الشّعراء منذ القدم، حين كانوا يتكئون على عناصر الطّبيعة ليعبّروا عن شوقهم وحنينهم لديارهم، وها هو ذا الشّاعر يطلب من المتلقي أن يسأل البارق النجديّ عن نيران الشّوق لدياره، يقول:

سلوا البارق النّجديَّ عن سُحبِ أجفاني وعَمّا بقلبي من لَواعجِ نيراني

ومفردات الطّبيعة تتسع حقولها المعجمية، فقد لجأ الشّاعر إلى انتقاء بعض المفردات ليعبّر عن موجودات طبيعته في بيئته التي ألفها وعاش فيها، كما في قوله:

فللهِ ما أذكى شَـذا نَسْمـةِ الصّبا صباحا إذا مرّت على الرّندِ والبانِ

فما بين أنواع الورود "الورد، والبان" تتحرّك نسمة الصّبا في الصّباح الباكر لتبثّ في حركتها رائحة الشّذا، وفي هذه الصّورة الشّعرية المتكاملة ما بين الحركة واللون والرّائحة تتدفق مشاعر الحنين فيزداد الشّوق، فلا يستطيع النّسيان، ولا يروقه أي مكان آخر، ويعبّر عن ذلك في معجم لغوي ينسجم مع الدّلالة التي يسعى إلى إيصالها، فيقول:

ولا راقني روضٌ ولا هشّ مسْمَعي لنغمـةِ أَطْيـارٍ ورنّـةِ عيدانِ

وأما حقل معجم أسماء الأماكن، فيتمثّل في حرص الشّاعر على ذكر أسماء الأماكن التي مرّ فيها في غربته، فيفخر بتونس "أنيسة الإنسان":

هي الحضرةُ العُليا مدينةُ تونسٍ أنيسَـة إنسـانٍ رآهـا بإنسـانِ

والنّظر في معجم المكان عند التونسي يؤكّد عمق ارتباطه بوطنه من خلال المقارنة بين بلاده وكل مكان يمرّ فيه، فيقول:

- وقد وقفت بالشام وقفة حامل نوافح مسك من ظباء خراسان

- تحيّة مشتاق إلى ذلك الحمى وسكـّانه والنـازحين بأظعـان

- وحيّا ربوع الحيّ من خير بلدة تخيرها قدِمًا أفاضل يونان

فما بين أرض الشام وظباء خرسان يزداد الحنين للوطن وأهله النّازحين، وما هذا النّزوح إلا سبب للحزن بسبب البعد، وحين يأتي الشّاعر على ذكر وطنه تظهر مفردات الفخر، فيعتزّ بتاريخ بلاده التي تخيّرها اليونان لتكون في الماضي أرضًا لها، فبلاده هي خير البلاد، لذا نجده يحيّي ربوعها التي توحي بجماليات الوطن الغائب، فتتسع دائرة الحنين والشّوق لتصبح مرتبطة بكل مكان يذكره الشّاعر وبأهل هذه الأمكنة، ومن هذه الأماكن وساكنوها من الأقوام المشهورة:" خراسان/يونان/ الشام/ الفرس/ آل ساسن/ آل حفص/ عجم / سحبان/ عربان/ كيوان".

ولعلّ أسماء الأماكن والأقوام التي ذكرها الشاعر يعمّق شعور الحنين، فيأتي حقل الفخر بالوطن؛ لأنّ البعيد عن أرضه يزداد شوقًا وفخرًا لترابها، ومن هذا الحقل المعجمي تطالعنا الكلمة بصيغتين صرفيّتين هما "الفخر والمفاخر " وتطالعنا أيضًا المفردات الآتية: (خير بلدة/ الفخر/ الفضل/ مباني العز/ أفخر/ المجد / وجاهة/ حسْن / جمال/ عزّ" والعزّ يحتاج إلى قوة لتنسجم مع سياق الفخر، فتأتي مفردات البطولة لتغذّي صورة الفخر الممتدة في معظم أبيات القصيدة، فنجد الإتقان للبطولة متحققًا بالكلمات الآتية: (أبطال / شجعان/ فرسان / عساكر/ إتقان).

وبهذا نتبيّن أنّ حقل المشاعر عند التّونسيّ هو الأكثر حضورًا في الجسد النّصي للقصيدة، فالقارئ يستطيع أن يدرك معاني شوق الشّاعر لأرضه وحزنه لابتعاده عن أهله من خلال المنظومة الآتية.

العلاقات الدّلالية:

تقوم نظرية العلاقات الدّلالية على فهم المعنى المعجمي للكلمة، " فالقيمة الدّلالية للكلمة تكمن في معناها"(الشيخ،عبد الواحد،1999م) ومن هنا فإنّ هذه الدراسة سعت لتوضيح المعاني الكامنة في العلاقات الدّلالية التي تربط بين مفردات النّص الشّعري، والقارئ يلحظ في هذه القصيدة مجموعة من العلاقات التي تجمع أطراف النّص، ولعلّ أبرز هذه العلاقات كما ظهرت في النّص:

أ- الإشراك:

يعدّ الإشراك عنصرًا مهمًّا في تحقيق الدلالة، وذلك من خلال جمع الجمل والعبارات في النص وعطف بعضها على بعض بما يتوافق مع البنية الدلالية، وقد ورد الإشراك عند الجرجانيّ إذ يرى أنّه:"لا يتصوّر إشراكٌ بين شيئين حتى يكون هناك معنى يقع ذلك الإشتراك فيه"(الجرجاني، 2011)، والإشراك من العلاقات التي تكشف عن الأبعاد الدّلالية في النّص وتتمّ بين عنصرين متعاطفين أو جملتين متعاطفتين. (الخطابي، 2000)

والإشراك أو " الاشتراك" ينقسم إلى قسمين هما:

أولا: الاشتراك بين العناصر، ويتمثّل بين المفردات ويجري كذلك " بين الجمل التي لها محلّ من الإعراب وهو الذي يحلّ محلّ المفرد ومعلوم أن الواو حرف عطف يشترك فيه الثاني مع الأول في الحكم الإعرابي " (درويش، 2011).

ثانيًا: الاشتراك بين الجملتين:

إذ لا يكون للجملة موضع من الإعراب حتى تكون واقعة موقع المفرد، وإذا كانت الأولى واقعة موقع مفرد كان عطف الثانية عليها جاريًا مجرى عطف المفرد على المفرد، وكان وجه الحاجة إلى الواو ظاهرًا والاشتراك بها في الحكم موجودًا، فإذا قالت: مررت برجل خلقه حسن خِلقهُ قبيح كنت قد أشركت الجملة الثانية في حكم الأولى " (الجرجاني، 2004).

وفي هذه القصيدة نجد أن الإشراك بين العناصر قليل، لأن أبا الفتح التونسي اعتمد في الأغلبية على العطف بين الجمل، فقد جاء في مطلع قصيدته:

- سلوا البارق النجديّ عن سحب أجفاني وعمّا بقلبي من لواعج نيران
- ولا تسألوا غير الصّبا عن صبابتي وشدّة أشواقي إليكُم وأَشْجاني

فالشاعر يقف كعادة الشعراء العرب القدماء ليستعرض دلالات حبّه لأرضه متلمِّسًا مظاهر الطبيعة لتكشف عن مشاعره القلبية ومتكئًا على أسلوب العطف ليجمع بين متناقضين في سياق دلاليّ واحد يكشف حجم حبّه لوطنه، فما بين لواعج القلب وشدّة الأشواق والصبابة نجد دلالات الحب تجتمع في سياق دلاليّ واحد تحقّق بواسطة حرف العطف الواو. وهو الحرف الأكثر تكرارًا في هذه القصيدة.

و عطف الجمل هو الغالب في هذه القصيدة لكي يبني علاقات دلالية بين مفردات غالبًا ما تكون المسافة المعنوية بينها متباعدة متكئًا على العطف فيحقق تقاربًا دلاليًا بين هذه المتباعدات، من مثل قوله:

– يضيق بها الفضا ويحجم عنها الفرس:

فقد جاء الشّاعر بفعلين متناظرين من حيث صيغتهما الزّمنية، فهما فعلان مضارعان مسندان إلى فاعلين متمثلين في النّص، ورغم تناظرهما الزّمني إلا أنهما مختلفان في الدّلالة، فجيوش تونس الذين يضيق بهم الفضاء لكثرتهم يحجم عنهم جيوش الفرس، فلماذا أحجموا ولم يواجهوا؟ ألم يكن الأولى أن يتواجه الجيشان فيتغلّب الأقوى وهو كما يريد الشّاعر – جيش تونس- على الأضعف.

لعلّ الجمع بين الجيشين في واوٍ عاطفة أحدث بعدًا دلاليًا أراد أن يؤكده الشّاعر وهو قوة الجيش التّونسيّ وكثرته لذلك أحجم جيش الفرس لخوفهم من آل حفص، إلا أن الدّلالة الأعمق تحتمل أن المواجهة أفضل من الإحجام.

وفي قول الشّاعر:

فما الدّهر إلا هكذا فاصطبر له: رزيّة مالٍ أو تفرّق خلاّنِ.

نجد أن سياق العطف يفرض دلالة الاختيار بين مصائب الدّهر، ويقدّم فقد المال على تفرّق الخلان، والأولى في الدّلالة للحنين للأهل أن يقدّم التفرّق للخلان على ضياع المال، فإشراكهما في عطف بحرف يفيد التخيير أضعف من دلالة شوقه وحنينه رغم تجلّده للاصطبار على هذا الفراق.

وأما الحديث عن الاشتراك بين العناصر والمفردات، سنجد أن هذا النوع من الاشتراك أقل حضورًا في هذه القصيدة، فقد استمرّ الشاعر بتكرار حرف الواو للعطف بين المفردات، ليؤكد الدلالة ذاتها، ومن ذلك قول الشاعر:

– وما غربت حتى تضاعف نشرها بواسطَتي روحٍ هناكَ وريحانِ
– وناشدتها بالله إلا تفضّلتْ بتبليغ أحبابي السّلام وجيراني

فرائحة ريحان الوطن أعادت لأبي الفتح الروح فجمعت الكلمتان في سياق واحد بحرف العطف " الواو" ليؤكّد دلالات الشوق لوطنه؛ ممّا دفعه لمناشدة الرياح لكي توصل سلامه للأهل والجيران في تناغم دلالي تشترك فيه المعاني الدالّة على حب الديار والشوق إليها.

ب – الإجمال / التفصيل:

هذه العلاقة من أبرز العلاقات التي تعتمد على المعاني والدلالات داخل خطاب ما، فالمجمل من الكلام يعني " إيراد معنى على سبيل الإجمال ثم تفصيله أو تفسيره أو تخصيصه"(عبدالمجيد، 1998م).

وهذه العلاقة الدلالية تُحَقق اتصال المقاطع النصّية بعضها ببعض بفضل ما تمنحه هذه العلاقة من استمراريّة دلاليّة بين مقاطع النّص، والجدير بالذّكر إنّ هذه العلاقة لا تسلك في فضاء النّص في الاتجاه نفسه، وإنما تسير وفق اتجاهين أحدهما اتجاه كلّي عام، والآخر اتجاه تفصيليّ دقيق؛ مما

ينقل السياق من رتابة الوتيرة الواحدة إلى تنامٍ مطّرد. (خطابي، 1991).

ويبدو أن الشّاعر جمع أطراف نصّه وربط بين مفرداته ضمن علاقات تعمّق الدّلالة التي يسعى الشّاعر إلى تأكيدها، ولعلنا نلاحظ أن الشّاعر فصّل المجمل لإيضاحه والكشف عن مكنوناته الدّلالية، لا سيّما أن التونسيّ مال إلى التّفصيل في أوصاف قومه وأهله، ومن ذلك نجده يفصّل ما حوته أرض تونس بقوله:

هي الحضرةُ العُليا مدينةُ تونسٍ أنيسَـة إنسـانٍ رآهـا بإنسـانِ

لها الفَخْرُ والفضْلُ المبينُ بما حَوتْ من الإنسِ والحُسْنِ المنوطِ بإحسانِ

ولعل تفصيل قوله (بما حوت) هو الذي يوضّح أسباب مشاعر الفخر، فيأتي الشّاعر على الكشف عن دلالات ما يحويه هذا المكان ليعمّق الشعور بالفخر، ومن هنا نكتشف أن دلالات الفخر تمثّلت بما يلي:

- حل بها آل حفص ملوكها ـــــــ حوت خير الملوك
- سادوا بها كل الملوك وشيّدوا مباني العز ـــــــ حوت الملوك الذين بنوا وشيّدوا
- كان لهم حسن نظام لا يعاب ـــــ حوت الملوك الذين يحسنون نظام الحكم
- كان لهم عساكر جمة ـــــــ حوت الجيوش العظيمة
- جيوش يضيق بهم الفضا ـــــــ حوت الجيوش الكثيرة
- يحجم عنها الفرس من آل ساسان ـــــــ حوت الجيوش القوية التي تهابها الفرس
- كان بها حصنًا أمانٍ وإيمان ـــــــ حوت الإمان والقوة والإيمان
- كان لأهل العلم بها وجاهة ـــــــ حوت العلم والجاه والمجد والعز
- كان بواديها المقدّس فتية تقدس باريها ـــــــ حوت رجال الدين
- ومن أدباء النّظم والنّثر معشر ـــــــ حوت الأدباء الذين يتفوّقون في بلاغته.

لا شكّ في أن تفصيل الشّاعر للأسباب التي دعته للفخر بأرض تونس يوسّع دلالة المجمل، فقط اتكأ على تقنيّة التّكرار ليفصّل في صورة الفخر معتمدا على الفعل الماضي سواء أكان تامًّا أم ناقصًا ليبيّن ما كانت عليه(أرض تونس) وقد كانت على حال تدعو للفخر بأهلها الذين امتازوا بالعلم والقوة والدّين وملوكها الذين أشادوا البنيان وأحسنوا الحُكم والنظام، فأرض تونس تتسع لتحتوي كل دلالات الفخر، ولعلّ اختيار الفعل (حوت) هذا الفعل الذي أسند إلى تاء التأنيث العائدة على أرض تونس، وفي هذه الانتقائية اتساع في دلالات الاحتواء لتضمّ في تفصيلاتها جزئيات تكشف عن عمق التاريخ لهذه الأرض.

والمعنى المعجمي لدلالات المصائب التي حلّت بأرض تونس اتّسعت عند الشّاعر لتعمّق صورة الألم عنده، فحرص على التفصيل في وصف الحال التي آلت إليها تونس بعد الوقوع في محنتها، وتمثّل ذلك بقوله:

- إلى أن رمتها الحادثات بأسهم وسلّت عليها سيف بغي وعدوان

والتفصيل يأتي في أثر هذا العدوان الذي تمثّل بـ:

- شتّت ذاك الشّمل..... أثر مادي يتمثّل بالفرقة الحقيقية، وهذه الفرقة هي حقيقة ما يعانيه التّونسيّ الذي لم يستطع أن يرجع لبلاده بعد حدوث ذلك العدوان.
- عمّنا غمّ بعظم مصابها..... أثرٌ نفسي انعكس أثره في رؤية الشّاعر للحياة، فألم الفرقة اتّسعت دلالاته في مفردات معجمية متعددة كلّها تدور في فلك واحد هو فلك المعاناة من الغربة والحزن على الحال التي آلت إليها تونس والشّوق لرؤية أهلها وأرضها، وحول هذا المعنى نجد المفردات الآتية تفصّل وتؤكد هذه الدّلالة:

فلا تَحْسَبوا أنّي تسـلّيتُ بعْـدَكمْ بشيءٍ من الدُّنيا وَزُخرفها الفاني

ولا أنّني يومـاً تنـاسيْتُ عهدكمْ بحـالٍ ولا أنَّ التّكاثرَ ألهـاني

ولا راقني روضٌ ولا هشّ مسْمَعي لنغمـةِ أَطْيـارٍ ورنّـةِ عيدانِ

ولا حلّ في فكري سـواكمْ بِخَلْوةٍ ولا جَلْوةٍ مـا بين حورٍ وولدانِ

ولا اخْتَلَجتْ يوما ضمائرُ مُهجتي لغيركمُ في سرّ سـرّي وإعلاني

لا شكّ في أن هذه السلسلة المتوالية من أدوات النّفي التي جاءت لتؤكد عمق المحبة وانتظمت في بنية إيقاعية تناغمية لتنسجم مع الحسّ الموسيقي الذي ضبط الشّاعر عليه أحاسيسه وكلماته، فاتّسعت دلالة التّأكيد مع توالي حروف النفي وتكرارها(لا التي تكرّرت في خمسة مواضع متتابعة. وأما سياق الشّرط المنفي جاء ليحقق دلالة جديدة وهي الأمل باللقاء والعودة للديار.

لو لم أسلّ النفس بالقرب واللقا لأدرج جسمي في مقاطع أكفاني.

فالشّاعر تتسع تفاصيل دلالاته المعجمية ليؤكد الأمل بقرب لقاء تونس حين تتحرر من أعدائها.

" ج: الطّباق

يلحظ القارئ لمفردات هذه القصيدة أن هناك كلماتٍ متطابقة تحمل معاني متعاكسة تتناثر في معظم أبيات القصيدة، وفي معظمها يأتي الطّباق في البيت الواحد، ويمكن رصد ذلك بما يظهر الطّباق كاختيار واع من الشّاعر لينقل انفعالاته النّفسية من هذه الصّور المتناقضة، ويعكس حرقته على ما آلت إليه أرضه وأمله في العودة إلى هذه الدّيار بعد تحريرها من العدوان، وبين الألم والأمل يظهر الطّباق.

وتعدّ مسائل المطابقة والمقابلة، من أبرز المسائل التي درست في البلاغة منذ القدم في مبحث المحسنات البديعية، ومبكرا وقف حازم القرطاجني في منهاج البلغاء عندها قائلا:" فإذا أردت أن تقارن بين المعاني وتجعل بعضها بإزاء بعض وتناظر بينها، فانظر مأخذا يمكنك معه أن يكون المعنى الواحد وتوقعه في حيزين، فيكون له في كليهما فائدة. فتناظر بين موقع المعنى في هذا الحيز وموقعه في الحيز الآخر، فيكون من اقتران التماثل. أو مأخذا فيه اقتران المعنى بما يناسبه، فيكون هذا من اقتران المناسبة. أو مأخذا يصلح فيه اقتران المعنى بمضاده؛ فيكون هذا مطابقة أو مقابلة" (القرطاجني، 1981)

ولعلّ الشّاعر أراد من هذه المفردات المتطابقة أن يوسّع دلالات الحزن ويقلل دلالات اليأس

ولذا نجده يبدأ نصّه بثنائية (سلو / ولا تسألوا) وبين السّؤال عن الديار وما حلّ بها وعدم أخذ السّؤال إلا من مصادر موثوقة وهي التي تدلّ على الصّبا والصّبابة والشّوق لأرضه ووطنه، يأتي تأكيد الشّاعر للأمل بالعودة لهذه الديار بقوله:

- فما أنا في عودي إليكم بآيس فما اليأس إلا من علامة كفران.

ولو تأملنا خريطة المفردات المعجمية التي ينتقيها الشّاعر نجده يلتقط بعض المفردات ليقيم بينها علاقات متضادّة ليؤكد معنى التّطابق في المشاعر التي تسيطر عليه عند وصف دياره، ويحقق التناغمية الدّلالية بين المتباعدات اللفظية، ومن هنا نجده يكرر التّطابق في مستوى البيت الواحد في عدة مواضع نذكر منها:

- سريع السّرى..... ليس بالواني
- إيقاظ..... الوسنان
- من الشّرق..... نحو الغرب
- سرّ..... وإعلاني
- طال المغيب..... مقيم

يبدو أن العلاقات المعجمية بين المفردات المتطابقة محدودة في مساحة النّص، بالرغم من أنّها على مستوى البنية العميقة متجسّدة في الجسد النّصي كله، ذلك لأن القصيدة قائمة على وصف ما كانت عليه تونس وما آلت عليها، وهذه المقارنة لا شكّ في أنها تحتاج إلى الوقوف عند التغيرات قبل وبعد، وتبقى الدّلالة المعجمية في بنيتها العميقة متسعة لتجليات تأويلية متعددة تنسجم مع رؤية الشّاعر وتأويلاته.

الخاتمة

وبعد،،

فإنّ المغترب يعيش حالة شعورية خاصّة إزاء وطنه وأهله الذين ابتعد عنهم، تتمثّل باستعار نار الشّوق والحنين الدّائم إليهم، والإحساس بمرارة الغربة المكانية، ذلك الشّعور الذي يجعل الوطن حاضرا دائما في خَلَد المرتحل عنه من أبنائه، ويضاعف إحساسه بالانتماء إليه، والافتخار بكل فضائله التي ميّزته عن غيره، وتتضاعف هذه المشاعر ويشتدّ أوراها إذا ما حلّ بالوطن مكروه، فكيف لقلب الغريب أن يهنأ ويستقر ووطنه وأهله ليس بخير؟!

لقد صوّرت لنا هذه المشاعر بدقّة نونية أبي الفتح التّونسيّ نزيل دمشق، التي نظمها يرثي وطنه تونس وأهلها بعد واقعة الحسن الحفصي التي تسبّبت في دمارها؛ إذ شكّل الشّوق والحنين للأهل والوطن موضوعها الرّئيس الذي تفرّعت عنه مضامينها الأخرى، وقد ظهر هذا الموضوع واضحا في بناء القصيدة من بدايتها وحتى أبياتها الأخيرة، فكانت البداية تعبيرا عن عمق الشّوق والحنين لتونس وأهلها، وتصوير ما حالة الحزن التي تولّدت عنه، وتأكيدها بمشاركة الطّبيعة للشّاعر وتوظيفها لرسم معاناة الشّاعر وإيصال شوقه وحنينه لأهله ووطنه. وقد صوّرت هذه القصيدة انشطار الشّاعر ما بين ماضٍ جميل عاشه في وطنه وأهله يتذكّره ويحن إليه ويفتخر به ويحمل تفاصيله الجميلة معه في غربته، وما بين واقع أليم دمّر وطنه وشتّت شمل الأهل فيه، تسبب في زيادة حنين الشّاعر وشوقه إلى وطنه، وتأكيد انتمائه إليه مع طول ابتعاده عنه.

وتبيّنت الدّراسة الدّور الكبير الذي قدّمته البنية الدّلاليّة في تعبير الشّاعر عن حالته الشّعورية التي سيطر عليها الشّوق والحنين للوطن والانتماء إليه، إذ كانت الحقول الدّلالية رديفة للمعنى ومُجليّة له، فتوزعت في حقل المشاعر وحقل الطّبيعة وحقل الأماكن والقبائل، وما الحنين والشّوق إلا مشاعر تحتاج إلى ما يظهرها من الألفاظ، وما الغربة إلا تنقّل ما بين الأماكن فيكون الجسم في مكان والشّوق والحنين والانتماء للمكان الذي غادره

المغترب(الوطن)، وما الطّبيعة إلا المعين للشّاعر والمشارك له شعوريا في تعبيره عمّا يختلج صدره من مشاعر وأحاسيس تكون الطّبيعة لسان الشّاعر ورسوله لمن يحن إليهم ويشتاق لرؤيتهم. وإلى جانب الحقول الدّلاليّة تضافرت مجموعة من العلاقات الدّلاليّة مع المعنى وأكّدته، فكان من أبرزها:الإشراك والإجمال والتّفصيل.

المصادروالمراجع

ابن معصوم، ع. (د.ت). *سلاف العصر في محاسن لشّعراء بكل مصر*. مصر: مطبعة الخانجي.

ابن منظور، ج. (1997). *لسان العرب*. (ط7). بيروت: دار صادر.

أبو زيد، أ. (1979). الاغتراب اصطلاحا ومفهوما وواقعا. *مجلة عالم الفكر*، 10.

الأصبهاني، ع. (1955). *متن كتاب خريدة القصر وجريدة*. العراق: المجمع العلمي العراقي.

بحري، س. (2006). *الشّعر في ظل الدّولة الحفصيّة. رسالة ماجستير*، جامعة منتوري، 62.

البدوي، ا. (2009). *شعر النّازحين من الأندلس إلى مصر والشّام في القرن السّابع*. (ط1). الأردن: الأهلية للنّشر والتّوزيع.

البوريني، ح. (1959). *تراجم الأعيان من أبناء الزّمان*. دمشق: المجمع العلمي العربي.

الجاحظ، ع. (1964). *رسائل الجاحظ*. القاهرة: مكتبة الخانجي.

الجبّوري، ي. (2007). *الحنين والغربة في الشّعر العربي*. الأردن: دار مجدلاوي.

الجرجاني، ع. (2011). *دلائل الإعجاز*. (ط6). مصر: مكتبة الخانجي.

الجوهري، إ. (1987). *تاج اللغة وصحاح العربيّة*. (ط4). لبنان: دار العلم للملايين.

الخطابي، م. (2000). *لسانيات النّص مدخل إلى الانسجام النّصي*. (ط1). المركز الثقافي العربي.

الخفاجي، ش. (1967). *ريحانة الألبا وزهرة الحياة الدّنيا*. سوريا: مطبعة عيسى البابي الحلبي.

الخليلي، م. (2007). *الحنين والغربة في الشّعر الأندلسي/عصر سيادة غرناطة. رسالة ماجستير*، جامعة النّجاح.

درابسة، م. (1992). الغربة في شعر حسن بكر العزازي. *مجلّة جامعة تشرين، سوريا*، 14(1).

درويش، أ. (2011). *الأسلوب بين المعاصرة والحداثة*. (ط1). القاهرة: دار غريب.

دقالي، أ. (2008). *الحنين في الشّعر الأندلسيّ*. (ط1). الإسكندرية: دار لوفاء لدنيا للطّباعة والنّشر.

دوابشة، م. (2009). الحنين في الشّعر الأموي. *مجلة جامعة تشرين، سوريا*، 31(2).

الرّازي، م. (2008). *مختار الصّحاح*. (ط1). بيروت: دار صادر.

رجب، م. (1978). *الاغتراب*. (ط1). الإسكندرية: منشأة المعارف.

الشّيخ، ع. (1999). *العلاقات الدّلاليّة والتّراث البلاغي العربي: دراسة تطبيقية*. (ط1). مصر: مكتبة شعاع الفنيّة.

طحطح، ف. (1993). *الغربة والحنين في الشذعر الأندلسيّ*. (ط1). الدار البيضاء: مطبعة النّجاح الجديدة.

عبد المجيد، ج. (1998). *البديع بين البلاغة العربية واللسانيات النصية*. (ط1). الإسكندرية: الهيئة المصرية العامة للكتاب.

عبد النّور، ج. (1984). *المعجم الأدبيّ*. (ط2). بيروت: دار العلم للملايين.

عتيق، ع. (1976). *الأدب العربي في الأندلس*. (ط2). بيروت: دار النّهضة العربيّة.

عمر، أ. (1993). *علم الدّلالة*. (ط4). القاهرة: عالم الكتاب.

فهمي، م. (1981). *الحنين والغربة في الشعر العربي الحديث*. (ط2). الكويت: دار القلم.

القرطاجني، ح. (1981). *منهاج البلغاء وسراج الأدباء*. (ط3). بيروت: دار الغرب الإسلامي.

القيراوني، م. (1966). *المؤنس في أخبار افريقية وتونس*. (ط1). تونس: مطبعة الدّولة التّونسيّة.

مقديش، م. (1998). *كتاب نزهة الأنظار في عجائب التّواريخ والأخبار*. (ط1). بيروت. دار الغرب الإسلامي.

المقّري، أ. (1997). *نفح الطّيب من غصن الأندلس الرّطيب*. (ط5). بيروت: دار صادر.

النّيفر، م. (1996). *عنوان الأريب عما نشأ بالبلاد التّونسيّة من عالم أديب*. (ط1). دار الغرب الإسلامي.

الياسين، إ. (2010). عن الغربة في حياة ابن اللبانة وشعره. *حوليات آداب عين شمس*، 3.

References

Abdul Majid, J. (1998). *The difference between Arabic rhetoric and textual linguistics*. (1st ed.). Alexandria: Egyptian General Authority for writers.

Abdul Nur, J. (1984). *Literary lexicon*. (2nd ed.). Beirut: The House of Science for millions.

Abu Zaid, A. (1979). Alienation, terminology, concept, and reality. *Alam Al-Fikr Journal*, 10.

Al-Asbahani, I. (1959). *The text of the book Khareedat Al-Qasr and Al-Asr newspaper*. Iraq: The Iraqi scientific complex.

Al-Badawi, A. (2009). *Poetry of the displaced from Andalusia to Egypt and the Levant in the VII century*. Jordan: Eligibility for publication and distribution.

Al-Borini, H. (1959). *Biographies of Notables from the Sons of Time*. Damascus: Arab Scientific Academy.

Al-Gawhari, I. (1987). Taj Al-Lughah and Sihah Al-Arabiya. (4th ed.). Lebanon: Dar Al-Ilm for Millions.

Al-Jahiz, A. (1964). *Al-Jahiz letters*. Cairo: Al-Khanji Library.

Al-Jerjani, Abd. (2011). *Evidence of Miracles*. (6th ed.). Cairo: Al-Khanji Library.

Al-Jubouri, Y. (2007). *Nostalgia and Exile in Arabic Poetry*. Jordan: Dar Majdalawi.

Al-Khafaji, Sh. (1967). Rehana Al-Alba and the Flower of the World's Life. Issa Al-Babi Al-Halabi Press.

Al-Khalili, M. (2007). *Nostalgia and Exile in Andalusian Poetry / The Era of the Sovereignty of Granada. Master Thesis*, An-Najah University.

Al-Khattabi, M. (2000). *The Linguistics of the Text: An Introduction to Textual Harmony*. The Arab Cultural Center.

Al-Muqri, A. (1997). The Good Breath of the Good Ghost of Andalusia. (5th ed.). Beirut: Sadr House.

Al-Nifer, M. (1996). *The title of the question about what grew up in the Tunisian country from a literary scholar*. (1st ed.). The House of the Islamic West.

Alqairawane, M. (1966). Mu'nis in the news of Africa and Tunisia. (1st ed.). Tunisia: Tunisian State Press.

Al-Qirtagani, H. (1981).The Platform of the Balghaa and the Siraj of the Writers. (3rd ed.). Beirut: Dar Al-Gharb al-Islamiyya.

Al-Razi, M. (2008). *Mukhtar Al-Sahah, read and recorded*. (1st ed.). Beirut: Dar Sader.

Al-Yassin, I. (2010). About alienation in the life and poetry of Ibn al-Labbana. *Annals of the Etiquette of Ain Shams*, 3.

Atiq, A. (1976). *Arabic Literature in Andalusia*. (2nd ed.). Beirut: Dar Al-Nahda Al-Arabiya.

Bahri, A. (2006). *Poetry under the Hafsid state. Master's thesis*, University of mentori, 62.

Darabsa, M. (1992). The Exile in the Poetry of Hassan Bakr Al-Azzazi. *Tishreen University Journal*, 14(1).

Darwish, A. (2011). *Style between contemporary and modern*. Egypt: Dar greeb for Printing and Publishing.

Doukali, A. (2008). *Nostalgia in Andalusian Poetry*. Alexandria: Dar Lofaa Ladonia for Printing and Publishing.

Fahmy, M. (1981). Nostalgia and Exile in Modern Arabic Poetry. (2nd ed.) Kuwait: Dar Al-Qalam.

Ibn Manthoor, C. (1997). *The tongue of the Arabs*. (7th ed.). Beirut: Sadr House.

Ibn Masum, A. (n.d). *Slaves of the Age in the merits of poets in all Egypt*. Egypt: Al-Khanji press.

Mogadish, M. (1998). The book "Nuzha Al-Athar fi A'ajab Al-Tareikh Al-Akhbar. (1st ed.). Dar Al-Gharb Al-Islami.

Omar, A. (1993). *Semantics*. (4th ed.). Cairo: World of the Book.

Ragab, M. (1978). Mansha'at al-Maaref. *An-Najah University, Alexandria*, 1, 45.

Sheikh, A. (1999). *Semantic Relations and the Arab Rhetorical Heritage: an applied study*. (1st ed.). Egypt: Shuaa art library.

Tahtah, F. (1993). Alienation and Nostalgia in the Andalusian Sha'ar. (1st ed.). Casablanca: The New Success Press.